"نقد الحياة" للشاعر إبراهيم شعبان: دراسة أدبية تحليلية

إعداد:

نور عتيق بلاربي

08039370347

Nuruatiku13@gmail.com

وسليمان محمد بللو

قسم اللغة العربية جامعة عثمان بن فودي صكتو

مقالة مقدمة إلى

المؤتمر الوطني الأول من نوعه

تنظيم

كلية الآداب والدراسات الإسلامية

جامعة عثمان بن فودي صكتو

المكان: قاعة الاجتماع جامعة عثمان بن فودي صكتو

2016م /1437هـ

المقدمة:

لقد منّ الله سبحانه وتعالى على الأدباء أن ينشؤو ما يصور الحالات ويدعو إلى الأخلاقية والسلم عند الحاجة، ذلك لأن الأدب مرآت صادقة تعكس حياة الناس صفوها وكدرها حلوها ومرها، فكان الأدباء هم من يحمل تلك المرآة ويوجونها إلى حيث يجب أن تنعكس فتصور للأمة الواقع وتنير لها طريق الحل والخلاص.

ولقد آلت أمور البلاد خاصة بلاد المسلمين وبالأخص بلادنا النيجيرية إلى مآل بائس من حروب أهلية وقبلية، وشجارات طائفية ومذهبية، واختلافات سياسية وعقائدية، وويلات قاسية مدمية، التي تصدق ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام: "ستكون فتن كقطع الليل المظلم" فتجد في هنا وهناك ما يذهل العقول ويشجي القلوب، ويدمي العيون، ويمكن أن توصف هذه الأمور بانزياح الناس عن ساحة الأخلاق الحسنة التي ترضي الطبيعة البشرية وتتمشى مع اختلاف عاداتها وتقاليدها. وكثيرا ما يحرك مثل هذه الأمور وجدان الشعراء وعواطفهم، فيقرضوا قصائد يصورون فيها الحالات الواقعية والمصير المتوقع ويحذرون الناس من الوقوع فيما لا طاقة لهم به، باتحخاذ بعضهم مرآة أخيه.

هذا ما نجده في شعرائنا النيجيريين الذين ساندوا قومهم وقرضوا قصائد كثيرة يحرضون الناس على الصلح والسلام وتجنب الرذائل واللاأخلاقيات، فوقع كلامه موقعا حسنا في قلوب كثير من المواطنين. ويكونون بذلك قد أدَّوا دورهم في توفير والسلام في الوطن. وليظهر الباحث الأمر بوضوح مال إلى دراسة قصيدة واحد من هؤلاء الشعراء في هذا المجال وهو الشاعر إبراهيم شعبان الذي كتب قصيدة بعنوان: "نقد الحياة" ليرى مدى إدلاء الشعراء النيجيريين دلاءهم في هذا المجال واتخاذهم الأدب وسيلة في دعوة الناس إلى ما فيه النجاة والصلاح، فكان البحث بعنوان: **قصيدة "نقد الحياة" للشاعر إبراهيم شعبان دراسة أدبية تحليلية"** وتكون المقالة على الخطط التالية:

- المقدمة
- حياة الشاعر
- عرض القصيدة
- القيم الفنية في القصيدة
- الخاتمة

حياة الشاعر

الشاعر هو إبراهيم ويلقب ببرهام، ابن الحاج شعبان العارف بن خالد، وينتهي نسبه إلى الشريف عبد الله حطيج، وجده عبد الله حطيج هذا هو أمير شرفاء حطيج في أيامه. فالشاعر إذا شريفي النسب. ولد الشاعر سنة ١٩٦٥م بمدينة غسو عاصمة ولاية زنفر حاليا. ونشأ أمام والديه الكريمين، فأحسنا تربيته ووجهاه إلى العلم منذ أن كان طفلا صغيرا، ولقد عاش والده رحالة داعية سافر كثيرا في نشر الإسلام تحت راية التصوف، وكان يصاحب الولد معه في كثير من حله وترحاله لهذه المهمة مع أنه ليس بأكبر أولاده لرجاءه القوي في أن يورثه الله الولد هذه المهمة[١].

أخذ الشاعر مبادئ العلوم عند والده حيث بدأ تعلم القرآن وأولويات فقهية ومبادئ اللغة العربية، بل حتى بعض الكتب الصوفية. ثم أرسله والده بعد ذلك إلى مدرسة إصلاح الدين بحارة أنغور توكا غسو حيث واصل الدراسة وبها ختم القرآن الكريم وقرأ المواد الإسلامية والعربية حسب منهج التدريس بالمدرسة مما أعطاه أساسا متينا أهله ليلتحق بـ Gtc Kaura Namoda ليحصل على الشهادة الإعدادية ثم واصل بعدها إلى كلية المعلمين بزرم وحصل على الشهادة الثانوية في الدراسات العربية والإسلامية سنة ١٩٨٩.

في سنة ١٩٩٢ التحق الشاعر بالجامعة الإسلامية ساي، بجمهورية النيجر حيث حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية وتخرّج بها سنة ١٩٩٦. ومما يظهر علو همة

الشاعر أنه استطاع أن يحفظ القرآن الكريم أثناء هذه المرحلة. وفي سنة ٢٠٠٢م التحق الشاعر بقسم اللغة العربية جامعة عثمان بن فودي صكتو للحصول على الماجستير في اللغة العربية وحصل على الدرجة سنة ٢٠٠٧. ثم تاقت همته إلى تحصيل الدكتوراه في اللغة العربية فالتحق بجامعة ملايا في مليزيا وما زال هناك يحضر الدكتوراه. وهو محاضرا بقسم اللغة العربية كلية التربية مروا منذ سنة ٢٠٠٢.

نشأ الشاعر شغوفا بالشعر منذ نعومة أظفاره، وكان يحفظ القصائد التي تدرس في مدرسة اصطلاح الدين، وحدثت قضية يوما ما أن رأى الولد والده وهو يقرض الشعر ويقطعها بالتفعيلات حسب البحور، فسأل والده عن الأمر فأخبره الوالد بأن هذه هي طريقة الشعر في العربية، ولما رأى أن الولد معجب بالأمر بشّره بأنه سيسأل الله تعالى أن يورّثه موهبة والده الشعرية، فكان الأمر كذلك. وقد ابتدأ قرض الشعر بعد تخرجه في كلية المعلمين، وذلك في أمسية هيّأها شباب مدرسة اصطلاح الدين لمولد النبي صلى الله عليه وسلم، فابتدر الشاعر مرتجلا يمدح النبي صلى الله عليه وسلم قائلا:

حبيب الله حبيب الله * محمد خير خلق الله

ببسم الله أبدؤها * بحمد الله أوصلها

هذا، وإن كان للشاعر محاولات شعرية بسيطة قبل أيام تعلمه في كلية المعلمين. وله اليوم قصائد كثيرة في أغراض مختلفة من مدح ورثاء ووصف وحكم والمناظيم العلمية وغير ذلك[٢].

عرض القصيدة

تقع القصيدة في أربعين بيتا، تحت فكرة رئيسية وهي "الوصف" ومن المعروف أن الفكرة ضرورية للشاعر، "لأن الأدباء ليسوا بلابل يغنون الشعر بدون أفكار بل هم دائما يتكلمون بمعان[٣] ولذا قالوا: بأن الفكرة هي موضوع القصيدة وما اشتملت عليه من المعنى العام

والمعاني الجزئية[٤]. ونظرا إلى ذلك قسم معاني النص إلى أربعة معان جزئية، مبينا كل معنى على حده فبدأ بالفكرة الأولى وهي: "وصف الويلات والنكبات": استهل الشاعر قصيدته بوصف الويلات والنكبات التي دبت وسرت في المجتمع وصيرت المجتمع إلى مآل بائس محزن مرعب مخيف، لما تحدث فيه من الويلات والنكبات ولما أن الشاعر انزعج من الموقف وحيّر فلم يستطع أن يلوذ بأي نوع من التمهيد والتساؤل فاستهل استهلالا مباشرا قائلا:

لب الحياة مكدر الأرجاء * حرب وقتل سيئ الأنباء

إن القلاقل والبلابل قد طغت * وعلت ضغينة زمرة المشاء

وصف الشاعر ما يحدث في المجتمع من الحياة القاسية الفتاكة مبينا أن حياة الناس اليوم آلت من سوء إلى أسوء بل إلى أسوإ من الأسوإ، ذلك لأن الحياة اليوم عبارة عن سلسلة أنباء سيئة تصدر من شتى الأنحاء توحي بالقتال والحروب حتى أننا لا نستطيع التمييز إن كانت حياتنا حياة الإنسانية أم حياة الدواب، لما تضمنته من الظلم والطغيان والهمجية، كأننا نعيش في الجاهلية الأولى حيث يسطو القوي على الضعيف، بل طغت الفتن وعلت وعمت الأرجاء، فيقتل الإنسان ولا يعرف قاتله ولا فيم قتل، ثم استمر الشاعر يتمنى زوال تلك المآسي فقال:-

أفلا الطبيعة والحضارة تقتضي * نيل السلام لكافة الأنحاء

ظهر الفساد بكل وجه في الورى * من كسب أيدي الناس والأهواء

والخوف أزعج لاقرار لشامخ * وتزلزل الإقدام في صنعاء

واصل الشاعر يوصف الحالات التي أزعجته وحركت منه الشعور والوجدان فذكر أمورا كثيرة منها ظهور الفساد في الأرض بما كسبت أيدي الناس، وعدم القرار والاستقرار والأمان، والجور من الملوك، والتعصب من الناس، وشهادة الزور والإرهاب والفجور، وعدم الحياء

وهجر العلم وغير ذلك من الأمور التي من شأنها أن تفتك بكل مجتمع وقعت فيه. هكذا استمر الشاعر حتى سأل الله سبحانه وتعالى الفرج والمخرج عاجلا غير آجل فقال:

يا رب هب لي منك عرجا عاجلا * بزوال طغيان من الضراء

من هنا انتقل الشاعر إلى الفكرة الثانية وهي "شرح الحالة السمحاء للدين الإسلامي"، فقال في ذلك:

والحقّ أنّ السّلمَ نهجُ محمدٍ * في كافة البلدان والبيداء

وهُو الأمين ودينه سبل الهدى * جوّ السّلام وآمن العلياء

دينُ السّلامِ عدالةٌ وأمانةٌ * محبّةٌ لّلقربِ والإقصاء

وتفاهمٌ وتعاونٌ وكرامةٌ * بالبرّ والتّقوى بلا شوكاء

وتراحمٌ وتضامنٌ وأخوّةٌ * وتشدّ ركنًا راسخًا كالباء

فقد ذكر الشاعر أن دين الإسلام هو دين الحق الدين الذي لا يقبل الله يوم القيامة دينا غيره، وهو دين العفو والسلامة والعدالة وكذلك دين يعلّم الإنسان محاسن الأخلاق وإعانة المحتاجين، لأن الإسلام دين يرفض الظلم والطغيان ويأبى الغش وسفك الدماء، وكما وصف الإسلام بأنه دين الأخلاق الحميدة والرفض من الطبائع المذمومة، وكل ما يحدث في هذا الزمن من قتل المسلمين بدون ارتكاب أي جريمة توجب قتلهم فليس بالإسلام والإسلام بريئ من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

من هذ المنطلق شرع الشاعر ينصح الناس بالتمسك بالأخوة الحقيقة وتبادل الاحترام فيما بينهم فلا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى، وأن الله خلق الناس وجعلهم شعوبا وقبائل للتعارف فقط، فلا يتفاخر بعض على بعض، إذ كلهم من أصل واحد وهو آدم، وآدم خلق من تراب، فقال في ذلك:

خلق الإله شعوبكم وقبائلا * لتعارفوا يا غاية النعماء

فاللّون والأعراق والأوطان لا * فرق سوى التّقوى بلا عمياء

والأكرمون الأفضلون ببابه * المتّقون وصفوة الآراء

بعدما استوعب الشاعر في هذه الفكرة انتقل إلى الفكرة الثالثة وهي "التسلي" فذكر للناس أن الظلم الذي هو الأصل في مشاكلنا؛ -ظلم القواد وأولي الأمر وغيرهم- لن يدوم بل لابد من زواله في يوم من الأيام، بينما الحق يدوم ويطغى ويسوس المجتمع، ويقمع أعناق الجبابرة والطغاة، وفي ذلك تسل للناس ليوقنوا بأن نصر الله معهم وهو آت بلا تردد ولا وسواس، فقال في ذلك:

والجور لايبقى كطود شامخ * تذروه أيام بلا إعياء

والحق ينهض لو أبته جحافل * ويدس أعناق الألى الهيجاء

بعد ذلك اختتم الشاعر قصيدته يدعو الله سبحانه وتعالى بأن يدمر كيد أعداء الإسلام والوطن، وأن يزلزل أقدامهم حتى يسترد الوطن أمنه وأمانه ونعيش في سلام وأمان، ثم اختتم بالصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد وآله وصحبه.

الخصائص الفنية

تتسم القصيدة بقيم فنية تشيد بفضلها وتبين مدى رسوخ قدم الشاعر وتمكنه في الصناعة الشعرية. فكما لاحظ الباحثان أن الشاعر في القصيدة اهتم بالأسلوب الرائع حيث اختار أسلوبا قيما رائعا يفي بغرضه ويوصل رسالته إلى القراء، فكانت ألفاظه في النص ألفاظا ملائمة وضعها في المكان المناسب. فاستطاع أن يكوّن الجمل القيمة باللجوء حينا إلى الخيال الواسع لينشئ للقارئ جوّا يمثل له المواقف والمشاهد فيدرك القارئ بذلك ما يقاسيه الشاعر ويتعاطف معه.

والذي عمّق النظر في القصيدة يدرك أن عاطفة الشاعر فيها عاطفة صادقة قوية. ذلك لأن الجوّ الواقع لا يقل خطرا عما وصفه الشاعر إن لم يكن فوق ذلك؛ لبشاعة المصائب وفظعها وتنوّعها وتكرارها الدائم المستمرّ هنا وهناك، حتى أن الرجل ليخاف من يومه كما

يخاف من ليله، ولثبوت هذه الويلات في قلب الشاعر استهلّ بكل صدق وإخلاص بعاطفة جياشة صادقة قائلا:

لبّ الحياة مكدّر الأرجاء * حرب وقتل سيئ الأنباء

لم يتوقف الشاعر ليستهلّ بشيء إلا بالواقع المرير المفزع، استجابة لما بث فيه روح القول. ومما يدل على قوة الشاعر العاطفية استطاعته في الوهلة الأولى أن يغرس في القارئ نفس الشعور الذي يشعره وذلك بذكر أمور يرثى لحال كل مجتمع وقع فيها، وهي القتل والحرب والأنباء السيئة المحيّرة للعقول.وكما نجد هذه البراعة في مقطع القصيدة حيث سأل الشاعر الله سبحانه وتعالى كشف هذه البلايا التي عمت وجلّت ولن يستطيع ذلك إلا هو مما يدل على عظمة المصيبة في نظر الشاعر، ومستحيل لمن في مثل هذا الموقف أن يتصنع أو يكذب. ومن براعة الشاعر كون القصيدة محتفلة بألفاظ توحي بالبأس والشدة وتصور الموقف الحساس المزعج، ليُشعر القارئ بالمخاوف والمخاطر التي تلتف حوله، استمع إليه يقول:

إن القلاقل والبلابل قد طغت * وعلت ضغينة زمرة المشاء

والخوف أزعج لا قرار لشامخ * وتزلزل الإقدام في صنعاء

فالشاعر هنا حاول أن يجعل الكلمات متلائمة فيما بينها بحيث يقوي بعضها البعض في تصوير الجوّ المؤلم المرثي لحاله، ويشهد القارئ بذلك عندما يتأمل الألفاظ والتراكيب في قول الشاعر في البيتين: "إن القلاقل" "البلابل" "جور الملوك" "الخوف أزعج" "تزلزل الإقدام"، وتجد مثل ذلك في باقي أبيات القصيدة، والقارئ بمجرد قراءة هذه الكلمات وما ضاحاها يدرك المخاطر التي يقاسيها المجتمع، خاصة أن الشاعر وضع الألفاظ في أماكنها المناسبة بدقة متناهية، وقد قال النقاد في مثل ذلك: "على الشاعر أن يختار من الكلمات أدقّها في أداء المعنى الذي يجول في نفسه.....والشاعر الموفق هو الذي يهتدى إلى الكلمة التي تكون شديدة الإبانة عمّا يريد[٥]

هذا، ولما التفت الباحثان إلى تركيب الشاعر في صياغة الجمل وجدا أن الشاعر يكوّن الجمل حسب الرغبة والغرض، فعندما يريد بيان ثبوت حال ودوامه يستخدم الجملة الاسمية التي وضعت أصلا لهذا الغرض[٦]، ومن ذلك قوله:

إنّ القلاقل والبلابل قد طغتْ * وعلتْ ضغينةُ زمرة المَشّاء

لما أدرك الشاعر أن القلق صار للناس شربا ومغسلا وذلك لتسلسل الويلات الحربية بالقتل والنهب والسلب، حتى أنه ما من جوّ في البلاد إلا وتقمص هذا السربال، فالذي في غرب البلاد مثل ولاية كب وصكتو وزنفرا لا يخلو عن اللصوص القتلة، والذي في شرقي البلاد يعاني بوكو حرام وويلاتها، والذي في الجنوب يقاسي حركة بيافرا، إضافة إلى الاختلافات القبلية والمذهبية والعقائدية والدينية التي تشب نيرانها هنا وهناك، كل هذه المصائب كانت نتيجة لمشاكل رسخت في المناطق رسوخ الجبال الراسيات، فلا قرار للناس في ليل الدنيا أوضحاها. ولما أراد الشاعر أن يبين رسوخ هذا الأمر وثبوته استخدم الجملة الاسمية التي من شأنها أن تقرر الثبوت والدوام فقال: "إن القلاقل والبلابل قد طغت". وليوقظ الناس من الغفلة ويحرك شعورهم وإحساسهم استخدم لفظ "إن" التي وضعت أصلا للتوكيد[٧] فقال: "إن القلاقل" ليزيل الشك ويغرس اليقين في قلب كل من أراد الإنكار، كما أنه استخدم "قد" توكيدا أيضا ليدل على أن الحال هو كما يصفه بغير تفريط ولا إفراط.

ومن مظاهر استخدام الشاعر الجملة الاسمية ليفيد الثبوت والدوام قوله:

والخوفُ أزعجَ لا قرارَ لشامخٍ * وتزلزلَ الإقــدامُ فـي صنعاء

إنّ توالي المخاوف وتكررها يثبت ويديم القلق في القلوب بحيث يفقد الإنسان الأمان والاستقرار، ولهذا استخدم الشاعر الجملة الاسمية ليعبّر عن ذلك قائلا: "الخوف أزعج" وهذا من أدق الاستخدام، ذلك لأن الخوف يبقى زمنا حتى بعد زوال المصائب، ولن يفارق الناس إلا بعد زمن ويتم ذلك شيئا فشيئا لرسوخ الخوف في ذاكرة الناس وثبوته في أحوالهم ودوامه في أفعالهم.

ونجد ذلك أيضا في قول الشاعر:

إنّ الجهالةَ في المصائب ثلمةٌ * فتكتْ عرى الإسلام والسّراء

لما أراد الشاعر أن يثبت للقارئ عيب الجهالة وضررها اجتماعيا استخدم الجملة الاسمية فقال: "إن الجهالة في المصائب ثلمة" لأن الجهل هو أصل المصائب، وهو الذي يجعل من يريد أن ينفعك فيضرك، ولما كان الأمر صفة لن يغيرها شيء استخدم الشاعر الجملة الاسمية ليفيد أن الظاهرة صفة ثابتة، فيدرك بذلك المجتمع أن النكبات الواقعة مصدرها الجهل، وما دام أن الشعب لم يتثقف فالحال يدوم كما هو، والعلاج الوحيد يكمن في تعليم الشعب وتثقيفهم، فيتم بذلك الأمن والأمان.

ومن استخدام الشاعر هذا النوع من الجمل ليفيد ثبوت الظاهرة ودوامها قوله:

والجورُ لا يبقى كطود شامخ * تـــذروه أيـــامٌ بـــلا إعـياء

أراد الشاعر أن يبين أن الظلم مهما طغى وأبلى وخوّف وأقلق فما هي إلا لويحظات حتى يتلاشى ويزول فيبقى العدل والاستقرار والأمان، ذلك لأن الظلم ليس إلا مثل زبد البحر، والله تعالى يقول: "﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾[٨] فليعبر الشاعر عن الأمر بدقة متناهية استخدم الجملة الاسمية فقال: "الجور لا يبقى" وفي هذا تلطف بالقارئ والمخاطبين، لأن الشاعر لا يتلذذ بالواقع ولا بهذه المصائب لذا بدأ يرثي لحال الناس ويعطف بهم ويحنو عليهم، ولذا بيّن لهم أن هذا الظلم لن يدوم ولن يستمرّ، فكأنه يردد لهم قولهم قول الله تعالى:﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾[٩] وقد آمن الشاعر بأن الأمر ثابت ثبوت الأرض فاستخدم الجملة الاسمية لأنها فقط ما يفي بالغرض الذي يجيش في صدره.

هذا، ومن التراكيب الجيدة في القصيدة أن الشاعر كلما أراد أن يثبت تجدد الأمر واستمراريته استخدم الجملة الفعلية لأنها أصلا وضعت لتفيد التجدد والاستمرار[١٠]، ومن ذلك قوله:

لحق الفجورُ لذي الخلاعة في الضّحى * فأتى المجونَ، طبيعةُ الأصداء

أيقن الشاعر تنوع الفجور واستمراريته، ذلك لأن أسبابه ودواعيه كانت ولم تزل موجودة ومستقرة في أذهان الناس وفي واقع حياتهم، وكلما دامت الأسباب موجودة وثابتة لا بدّ من استمرارية المسبّبات، ولهذا لجأ الشاعر إلى الجملة الفعلية في تعبيره، لتساعده في الدلالة على التجدد والاستمرار، إذ كلما حدثت أسباب أخرى تجدّدت الحوادث، وإن لم تكن أخرى فتلك موجودة وستستمر ثمارها المفزعة المبلية المقلقة، ذلك لأن الجزاء يكون من جنس العمل، وقد قال تعالى:﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[11] وكيف لا يستمرّ الحال هكذا وقد انشغل الناس بالمعاصي والمفاسد، إن الناس هم مصدر الفساد والبليات ولا أحد منهم استعدّ ليغيّر أحواله، وما دام أنهم على أحوالهم الفاجرة تلك فالفجور سيستمر ويتجدد.

ومن استخدام الشاعر الجملة الفعلية ليوصل هذه الرسالة إلى القراء قوله:

تدعو الشّريعة ثمّ تقتل مسلمًا * هذا الغبيّ مسبّب البغضاء

فالشاعر هنا يريد أن يبين للقارئ ظاهرة شنيعة تحدث في المجتمع وهي قتل المسلمين الأبرياء بادّعاء الإسلام والجهاد في سبيل الله، وهذا أمر يتجدد كل يوم ويستمر بلباس متنوعة، فصاغ الشاعر الأمر في جملة فعلية وفي شكل استفهام غرضه التقريع والإنكار، بمعنى كيف يقتل المسلم أخاه بعد أن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[12] وقد حكم الإسلام بقتل قاتل المسلم في قول الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾[13] والمسلم يعرف أن القتل ليس من صفات المؤمنين ولماذا يقوم به المؤمن بعد أن ذكر الله تلك الصفات التي تكون الإنسان مؤمنا فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[14]فلو قام المقتولين بما يوجب سفك دماءهم إسلاميا لكان الأمر هينا، إذ ثبت في الحديث: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني،

والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة"[١٥] فلم يفعل هؤلاء المسلون أية صغيرة ولا كبيرة من هذه بل قتلوا ظلما وعدوانان وأشد من ذلك عيبا أن القاتل مسلم وقد قام بالقتل بادعاء الإسلام!!! وهذه البشاعة لا زالت هنا وهناك متجددة في كل حين وأوان، فالله المستعان وعليه التكلان. وليبيّن الشاعر أنّ الأمر متجدد ومستمر -ليأخذ الكل حذره ويقوم بالإصلاح ما استطاع- استخدم جملتين فعليتين في قوله: "تدعو الشريعة" "تقتل مسلما" لأن القاتل يجدد قتل الأبرياء في كل لحظة، ويستمر في سفك الدماء بهذا الادّعاء الكاذب. ومن مظاهر هذا التعبير الجيد قول الشاعر هو يصف سيلان الدماء من الأحبة والإخوان المقتولين فقال:

وترى سيولاً مِنْ دماءِ أحبّةٍ * كانوا صدورًا نخبة القرّآء

استخدم الشاعر الجملة: "ترى سيولا من دماء" ليفيد المخاطب أن دماء القتلى تسيل بالتجدد ويستمرّ سيلانها في كل آونة، كيف لا، والقتل متجدد في كل حين، وهذا لا يعني أن الدمّ يسيل مثل سيلان البحار والأنهار، بل إنما يريد الشاعر بذلك تكرار القتل وكثرة القتلى في مختلف أنحاء البلاد بدون أن يبالي بذلك الشعب مبالاة حثيثة، حتى وصل الأمر إلى حرق بلدة بكاملها، وقتل أسرة بجميع أفرادها، وطرد أخرى متشردة إلى البراري والقفار والجبال. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن استخدام الشاعر نفس التركيب لإثبات مثل هذه الصفة قوله:

ظهر الفساد بكلّ وجهٍ في الورى * مِنْ كسبِ أيدي النّاس والأهواء

فالفساد في اللغة اسم لكل شيء مضاد للإصلاح[١٦] ويرمز إلى كل المفاسد كلها والقبائح، وهي كثيرة جدا ومتجددة دائما بتجدد أنواعها ومستمرة بتنوع من يقوم بها، ولما أراد الشاعر بيان ذلك ذكره في تركيب قيم وأسلوب رائع باستخدام جملة فعليه توصل الرسالة في كلمات وجيزة، لأنها أصلا تدل على معنى التجدد والاستمرار، فقال: "ظهر الفساد" ليفيد القارئ أن الفساد متجدد ومستمر. ومما زاد التركيب جمالا وروعة كون الفكرة ممتدة

من آية قرآنية وهي قوله تعالى:﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[١٧]

ومن الأسلوب الجيد في القصيدة استخدام الشاعر أسلوب الاستفهام[١٨] فكان يستخدم هذا الأسلوب لكن بغرض يخرجه عن غرضه الحقيقي إلى غرض آخر يهدف غرض الشاعر. ومن ذلك قوله:

أفلا الطّبيعة والحضارة تقتضي * نـيل السّـلام لكافـة الأنـحاء؟

فالشاعر هنا بعد ذكر المصائب المتتالية تحسّر وتمنى لها زوالا، فصاغ الأمر في صورة استفهام قائلا: ما الذي يمنع الطبيعة السليمة أن تؤثر على واقع حياتنا وما الذي يمنع الحضارة أن تساندها فتشكل لنا جوّا سالما آمنا مستقرا، لأن العقل السليم والحضارة السليمة لا يرضيان بمثل هذه الويلات. وقد استطاع الشاعر أن يعبر بالأمر في قالب استفهامي لا يريد له جوابا ولا ينتظر ذلك، وإنما الغرض منه هو التمني.

ومن ذلك أيضا قوله:

تدعو الـشّريعة ثـمّ تقتل مسلمًا * هـذا الغـبيّ مسبّـب الـبغـضاء

استخدم الشاعر هنا أسلوب الاستفهام حيث سأل المخاطب عن كيف يقتل المسلمين بادعاء الإسلام، مع أن الموقف يخرجه عن دائرة المسلمين، لما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"[١٩] لكن الشاعر أخرج السؤال من غرضه الأصلي إلى غرض آخر يفهم من سياق الكلام هو التقريع والإنكار، فلم يتوقع من الموجه إليه الخطاب الجواب بل غرضه فقط هو أن يقرعه لفعله ويوبخه بموقفه وسوء حاله.

ومن أسلوب الشاعر في القصيدة أيضا: النداء[٢٠] فكان الشاعر في القصيدة يصوغ النداء لكن في طور آخر، ومن ذلك قوله:

يـاربّ دمّـر كلّ كيدٍ غاشمٍ * بِـتـزلـزلٍ وتـزعـزعٍ الأجـــزاء

فالشاعر هنا نادى الله سبحانه وتعالى باستخدام أداة وضعت أصلا لنداء البعيد وهي: "يا" مع أن الله سبحانه وتعالى قريب منه كما قال: "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" ونداء الشاعر ليس نداء حقيقيا وإنما الغرض منه الدعاء، حيث أدرك أنه ما من ملجإ إلا الله سبحانه وتعالى فلاذ به في زوال هذه المصائب. واستخدامه "يا" في النداء إشارة إلى عظمة الله سبحانه وتعالى وعلوّ منزلته.

هذا من ناحية الأسلوب، وأما فيما يمس الخيال فقد أدرك الباحث أن الشاعر يستخدم خيالا واسعا ليكوّن للقارئ صورة حية توضح له المغزى الذي يسعى إليه في شكل ملموس. ومن ذلك قوله وهو يصف القوّاد والزعماء الذين كان هدفهم الرئيسي في تولية المناصب هوة نهب مال الدولة، فقال وهو يصفهم:

والذّئب إن غصب السياسة يا تُرى * نادى الكلاب لصفقة الإغواء

أراد الشاعر أن يرسم لنا حياة زعماء البلاد فاستخدم صورة من الواقع وصوّر الأمر فيها، وهي الذئب التي تستولي على الفريسة، هل بقي لها شيء غير السبي والإهلاك والقتل والتدمير؟ وهذا واقع حياتنا اليوم، فزعماؤنا لا يهمهم إلا نهب الأموال، ولذا جعلوا الرئاسة دائرة بين الظلمة الفجار غالبا، بنفي كل نزيه عن المجال إلا النادر. لم يجد الشاعر ما يساعده في رسم هذه الصورة سوى أن يستعير لفظ الذئب ليدل على السياسيين الذين يتسلقون العرش ويسطون على الأموال، ذلك لأن الذئب لا يتميز بين الصغير والكبير والنيئ والشوي بل تجمع بين حظها وحظ غيرها، هكذا السياسيون في أيامنا هذه وكان ظلمهم مصدرا لكل هذا الفساد الاجتماعي، لأنه إذا صلح الراعي وأقام العدل في الرعية صلحت الرعية والتزمت الأخلاق الفاضلة.

ومن الصنع الجيد في النص استخدام الشاعر الخيال ليصوّر للقارئ ما يجول خاطره في قالب ملموس قوله وهو يصف ما آل إليه الناس من الذل والإهانة:

فالإنس أصبح كالجراد مذلَّةً * والدّبّ آمن مِنْ بني حوّاء

يصوّر الشاعر الحالة التي آلت إليها البلاد، حيث يعيش الناس متشردين في الحقول والبراري لائذين بالأحجار والجبال عن حرارة الشمس وقراسة الجو، بدون مأوى ولا ملاذ، تلعب بهم أيدي المخاطر المتنوعة، وينادون بمصطلح جديد (اللاجئون) بعد أن كانوا في قصور شاهقة ومباني جيدة، وسيارات ضخمة ونعمة كانوا فيها فكهين، فإذا هم اليوم يعيشون في نقمة بعد نعمة. فأراد الشاعر وصف حالهم للقارئ في شكل دقيق فاستخدم صورة من خياله ورسم الظاهرة فيها لندرك، وهي الجراد، ذلك لأن الجراد كانت تنتقل من مكان إلى آخر في حشد كبير، وكونها مجموعة لا يمنع كونها متشردة، إذ لا مأوى لها ولا ملاذ سوى الأشجار والنباتات، اتخذته سكنا ومأكلا، تبيت مهينة ذليلة تحت الحر والبرد والمطر، يدوس عليها كل مارّ بقدمه دون أن يشعر ودون أن يهتم، ويخطفها كل طائر أعجب بها، ويشن الناس ضدها حربا ويقتلونها بالسموم والكيمياويات، وقد يبيدوا القطيع بأجمعه في لحظات، هكذا كان حال الناس اليوم، يفرون إلى حيث لا مفر، ويلجؤون حيث لا ملجأ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، انظر إلى هذا الوصف الدقيق المكوّن من الخيال الواسع، فالذي أصبح لا يتيقن رؤية المساء، والذي أمسى يتوقع الموت قبل الصباح. أصبح الإنسان في بيئتنا أهون المخلوقات حتى العنكبوت الذي وصف بيته بأوهن البيوت في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[٢١] لأنه لا يمتلك ولو مثل بيت العنكبوت، يعيش الإنسان بين المخاوف والأخطار، حتى كان الذئب مع سوء سمعته وبغض الناس له كان أكثر أمنا من الإنسان، إذ لا أحد يبحث عنه غير الصيادين، وليس لهم أكثر آلات بسيطة تكفيهم للصيد، أما الإنسان فكان يصاد بالبنادق الفتاكة والقنابل المدمّرة وغيرها من أسباب الدمار والخراب.

ومن استخدام الشاعر الخيال ليرسم أفكاره رسما حسيا قوله:

سكتَ الحياءُ، ولا أمانَ لبيئةٍ * كرمٌ وصدقٌ فاقدا المِعطاء

اعتبر الشاعر البيئة التي يعيش فيها وهي البلاد النيجيرية فرأى أن الشعب اتسموا بصفات قبيحة وتخلقوا بأخلاق فاضحة مصدرها عدم اتصافهم بالحياء، وقد صحّ عنه عليه الصلاة والسلام: "الحياء خير كله"[٢٢] وهي صفة من صفات المؤمن[٢٣] ولما تخلى الناس عن هذه الصفة القيمة زال عنهم كل الخير. فصوّر الشاعر الحياء هذا التصوير العجيب، في حيوان ناطق الذي إذا تكلم سكن الجميع وهدأ الجوّ، واستعار لفظ السكوت فقال: "سكت الحياء" مع أن الحياء لا ينطق أصلا فيسكت. ثم استمر الشاعر في نفس البيت قائلا: "كرم وصدق فاقدا المعطاء" فقد كنى عن النتائج التي تحصل في المجتمع نتيجة الكرم والصدق، فالصدق يكون أساس الخيرات غالبا، والكذب يكون أصل الشرور، وحقيقة إن الصدق والكرم لا يعطيان شيئا بأيديهما فليس لهما يد أصلا فضلا عن أن يعطيا بها شيئا، ولكن الشاعر لم يجد صورة توضّح هذه الظاهرة كأن يصف الحياء في صورة مخلوق حي ناطق الذي إذا تكلم سُمع صوته، وإذا سكت لا يُسمع له حسيس.

ومن مظاهر استخدام الخيال في القصيدة قول الشاعر:

والجورُ لا يبقى كطود شامخ * تذروه أيامٌ بلا إعياء

يبين الشاعر أن الظلم مهما طال وخوّف وأضرّ فما هو إلا ظل زائل لا محالة، ولكن ذلك يتم بمرور الأيام والليالي والتزام الصبر من المظلومين، والإيمان المطلق بأن نصر الله قريب من المؤمنين، لما صح في الحديث من أن دعوة المظلوم "تفتح لها أبواب السموات ويقول لها الرب وعزتي لانصرنك ولو بعد حين[٢٤] وبهذا ينظر المظلوم إلى الظلم فيراه موجودا لكنه موقن بأنه قد يزول في كل لحظة، واستعان الشاعر بصورة من الجبال الشاهقة التي يراها الكل طغت وعلت وفاقت كل شيء طولا وعرضا ولكنها إذا لازم الناس ضربها يوما فيوما ستندثر وتتلاشى وتنقرض، فيصدق فيها قول الشاعر:

إن الجديدين إذا ما استوليا * على الجديد أدنياه للبلى

وربما لولا هذا الرسم الخيالي الذي وضعه الشاعر لأنكر أحدنا أن نوعا من الظلم سيستمر إلى نهاية الدنيا لعظمته في عينه وهيبة الظالم في قلبه، هذا ما سيتوقعه أحدنا؛ لكن لنراجع التاريخ فنرى مصداقية قول الشاعر في النمرود الذي ادعى أنه أيضا يحيي ويميت، وفي فرعون الذي طغى وذبّح الأبناء واستحيا النساء ثم حشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى. لقد عرضوا جميعا للزوال وزال معهم ما قاموا به من الظلم والطغيان.

كما نرى مثل ذلك في خيال آخر صاغه الشاعر ليرسم نفس الصورة عندما يقول:

والحقّ ينهض لو أبتْه جحافلٌ * ويــدسّ أعــناق الألى الـهيــجاء

من المعروف أن الحق صفة خلقية محمودة، وليس مخلوقا يمتلك الرجل واليد وسائر الأعضاء التي يتمتع بها البشر، لكن الشاعر يريد أن يري القارئ أن الحق سيتقوى يوما ويزهق الباطل، فلإظهار الغلبة صوّر الحق في صورة قوي له أعضاء يستطيع بها أن ينهض، وله رجل يستطيع بها أن يدوس أعناق الظالمين ويدمرهم ويغلبهم ويهلكهم نهائيا، ثم صوّر الظلم والظالمين والكذب والكذابين في صورة ضئيلة نحيفة يسهل تدميرها مع مرور الأيام وتدين جميعا تحت سيطرة الحق ثم تتلاشى وتنقرض كأن لم تسطو بالأمس.

ولما التفت الباحثان إلى الموسيقى وجدا أن الشاعر قد بنى القصيدة على بحر الكامل، وهو الذي تتردد تفاعيله على: متفاعلن متفاعلن متفاعلن × ٢

فيكون تقطيع البيت على ما يلي:

لُبْلُحَيَا / تِمُكَدْدِرُلْ / أَرْجَاءِي / حَرْبُنْوَقَتْ / لُنْ سَيْيِئُلْ/ أَنْبَاءِي/

مُتَفَاعِلُنْ / مُتْفَاعِلُنْ / مُتْفَاعِلَنْ/ مُتْفَاعِلُنْ / مُتْفَاعِلُنْ/ مُتْفَاعِلُنْ/

/٥١١٥١٥١/٥١١٥١٥١/٥١١٥١١١ /٥١١٥١٥١/٥١١٥١٥١/٥١١٥١٥١

والكامل بحر اعتبره النقاد في المرتبة الثانية بعد الطويل، يقول أنيس في بيان مراتب البحور الشعرية: "... ولا يزال كل من الكامل والبسيط والوافر والخفيف في المرتبة الثانية مع بعض

التفاوت في النسب ثم يأتي بعدها بقية الأوزان"[٢٥] كما أن الشاعر زيّن القصيدة بـ "التصريع" وهو جعل العروض مطابقا للضرب وزنا وقافية[٢٦] واستطاع الشاعر أن يجعل مطلع القصيدة على هذه الشاكلة كما مرّ في البيت المذكور سابقا الذي هو مطلع القصيدة.

وقد أظهر الشاعر اهتمامه أيضا بحرف الروي فجعله حرف الهمزة، فصارت بذلك القصيدة همزية، وهو حرف مجهور له صفة الشدة، وقد اختاره الشاعر ليبث فيه ما يقاسيه المجتمع من الشدة والألم، ولم يختر الروي من الحروف التي عدّها النقاد عيبا في التقفية الشعرية[٢٧]. وكما لاحظ الباحثان أن الشاعر أظهر براعته في كون الضرب سالما في جميع أبيات القصيدة مع كثرتها، حيث يأتي بالوزن كاملا "متفاعلن" دون أن يدخله قبض أو خبن أو غير ذلك من الزحافات والعلل التي تعرو التفعيلة فيتغير وضعها إلى وضع آخر.

الخاتمة

ما مرّ بالقارئ عبارة عن إظهار دور الشعراء النيجيريين في توفير الأمن في البلاد بدراسة وتحليل قصيدة واحد منهم في المجال. استهل الباحثان بذكر مآل البلاد النيجيرية وما تقاسيه من الويلات والبليات الأمر الذي حيّر كل عاقل ونبّه كل غافل، ثم ذكرا ما للأمن من الأهمية والأدوار التي تلعبها الأدباء في هذا المجال. كما عرض الباحثان القصيدة بذكر الأفكار التي عرضها الشاعر في النص ودور هذه الأفكار في توفير الأمن في الشعب. بعد ذلك تعرض الباحثان إلى الصور الفنية التي يحتويها هذا النص مما يبزر ما له من قيمة في الساحة الأدبية، وقد ظهر جليا أن الشاعر استطاع أن يصوغ أفكاره في أسلوب جميل وقالب خيالي وموسيقى ساحر بحيث تصل رسالته إلى العالم في شكل جيد يفي بالغرض.

وقد توصل الباحثان خلال الدراسة إلى النتائج التالية:

- إن البلاد النيجيرية تقاسي ما يقاسيه كثير من بلاد العالم اليوم من الحروب الأهلية والقبلية والدينية وغيرها مما سبب تشرد الناس ووقوع كثير منهم في أسوإ الحالات.
- إن الأدب العربي بصفته مرآة صادقة تعكس الحياة حلوها ومرّها، وله دور إذا قام به قد يساعد في توطيد الأمن والسلام في البلاد. كما حدث ذلك منذ العصر الجاهلي وما بعد ذلك من إنشاء قصائد تشيد بأفضلية الأمن والاستقرار والتحمل.
- إن الشعراء النيجيريين سلكوا منهج الشعراء في رسم الطرق الناجحة لتوفير السلام والأمن في البلاد النيجيرية فوصفوا المشكلات والحلول وعلّموا الشعب أن التحمل والعفو والتثقف هي مفتاح السعادة والأمان.
- إن الشاعر إبراهيم من الشعراء العباقرة الذين سخروا انتاجاتهم لخدمة شعبهم، وكان شعره جيدا ممتعا يقع في أرقى الصور التعبيرية.

الهوامش والمراجع

[1]- منصور شعبان، فن المديح عند الشاعر إبراهيم شعبان: دراسة أدبية تحليلية، بحث مقدم إلى قسم اللغة العربية جامعة عثمان بن فودي صكتو، للحصول على شهادة الليسانسن سنة ٢٠٠٩م، ص:١

[2]- منصور شعبان، المرجع السابق، ص:٤

[3]- شوقي ضيف، الدكتور، في الأدب والنقد، مكتبة دار المعارف بدون تاريخ، ص:١٤.

[4]- مسعد الهواري، قاموس قواعد البلاغة والنقد، مكتبة الإيمان بدون تاريخ، ص:١٤١.

[5]- أحمد أحمد بدوى, أسس النقد الأدبي عند العرب, دار النهضة للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص: ٤٥٢

[6]- راجع: أحمد أبو شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية، دار ابن حزم بيروت لبنان، ط:١ ٢٠٠٨م، ص:٢٢٣

[7] - أحمد أبو شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية، مرجع سابق، ص: ٢٢٩

[8]- سورة الرعد: ١٧

[9]- سورة الأعراف: ١٢٩

[10]- أحمد أبو شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية، مرجع سابق، ص: ٢٢٥

[11]- سورة النجم: ٣٩

[12]- سورة النساء: ٩٣

[13]- سورة المائدة: ٤٥

[14]- سورة الفرقان: ٦٨

[15]- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، نسخة إلكترونية مصدرها المكتبة الشاملة الإصدار الثاني

[16]- الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ)، الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة: الرابعة- يناير ١٩٩٠، ج:٣، ص٨١.

[17]- سورة الروم: ٤١

[١٨]- راجع: أحمد أبو شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية، مرجع سابق، ص: ٢٣٤

[١٩]- أبو المعاطي النوري، المسند الجامع المعلل، نسخة إلكترونية مصدرها المكتبة الشاملة الإصدار الثاني

[٢٠]- أحمد أبو شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية،مرجع سابق، ص: ٢٥١

[٢١]- سورة العنكبوت: ٤١

[٢٢]- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٥،ج٦؛ ص:٢٦٢

[٢٣]- الحياء من الإيمان: راجع: النسائي، السنن الكبرى: رقم الحديث،١١٧٦٥، نسخة إلكترونية مصدرها المكتبة الشاملة، الجزء الثاني

[٢٤]- البيهقي، الحافظ الجليل ابي بكر احمد بن الحسين بن علي ، السنن الكبرى، ج:٨ ص:١٦٢

[٢٥]- إبراهيم أنيس، الدكتور، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلوا المصرية، الطبعة الخامسة بدون تاريخ، ص:١٩٦

[٢٦]- مسعد الهواري, قاموس قواعد البلاغة والنقد, مكتبة الإيمان بدون تاريخ, ص:١٤١

[٢٧]- وهي الثاء، والغين، والذال, والزاى, والظاء, والغين، والشين، والخاء، لاتصافها من الناحية الصوتية بالبشاعة وصدم الآذان وغلظ الجرس. راجع: علي الجندي، الشعراء وإنشاد الشعر، دار المعارف مصر، بدون تاريخ، ص: ١٢٠